

البنوية في النقد المغربي المعاصر

د. يوسف نقماري

قسم الأدب العربي

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف (الجزائر)

تاريخ القبول: 2017/08/13

تاريخ الإيداع: 2017/07/16

الملخص:

Résumé:

La critique arabe moderne et contemporaine a connu des approches critiques et modernes à travers l'acculturation, la traduction et l'étude aux pays occidentaux où ce contact culturel a contribué à l'émergence du problème de l'originalité et le modernisme . Dès le début, il y avait des chercheurs qui ont rejeté ces approches, d'une part, d'autres ont essayé de les appliquer en analysant les textes artistiques et créatifs, et d'autre part, certains d'entre eux ont tenté de les localiser selon le contexte culturel arabe. Dans ce sens, notre article porte sur la manière par laquelle les critiques du Maghreb ont saisi le structuralisme dans la critique contemporaine.

ظهرت المناهج النقدية الحداثية في النقد العربي الحديث والمعاصر عن طريق المثقافة والترجمة، والدراسة في الغرب، حيث ساهم هذا الحوار الثقافي في ظهور إشكالية الأصالة والمعاصرة، فهناك من الدارسين من رفض هذه المناهج في بداية الأمر، و هناك من حاول تطبيقها كما هي في تحليل النصوص الإبداعية، ومنهم من حاول تبييها و تأصيلها حسب الثقافة العربية، وبناء على ذلك يأتي هذا المقال ليطرح كيفية تلقي نقاد المغرب العربي للبنوية في النقد المغربي المعاصر. الكلمات المفتاحية: النقد، البنوية، المناهج، الشكلائية.

Mots clés: la critique, le structuralisme, approches (méthodes), formalisme

تمهيد:

يمكن العودة ببدايات التعريف بالبنوية في الثقافة العربية المعاصرة إلى أواسط الستينيات، ومن أوائل ما كُتِب في هذا السياق مقالات نشرها محمود أمين العالم حول هذا الاتجاه في مجلة (المصوّر) المصرية (عام 1966) مُطلقاً عليها اسم (الهيكلية)¹.

غير أنّ الدراسة الأدبية في هذا الاتجاه لم تتضح ولم يبرز الاهتمام بها إلا في أواخر السبعينيات حين نُشرت دراسات لعدد من النقاد في المشرق والمغرب العربي تتبنى الاتجاهين الرئيسيين في البنوية: الشكلاني والتكويني.

الاتجاه الأضعف بين هذين الاتجاهين، هو البنوية الشكلانية التي لم تجد الكثير من التمثيل النقدي أو البحثي المميز إذا استثنينا بعض الدراسات التقديمية والشارحة الميثوثة هنا وهناك، وبعض التطبيقات المتفرقة، فهي على نقيض وصيغتها التكوينية فقد وجدت الكثير من الاهتمام العربي المبكر نسبياً، لا سيما في المغرب، مع تطبيقات نقدية جادة كثيرة.

غير أنّ مشكلات كثيرة أيضاً قد اعتورت هذا التمثيل للبنوية بجانبه، سواء كان ذلك على مستوى غياب الصرامة المنهجية في أحسن الحالات، أو الخلط في المفاهيم والمناهج نفسها، مع ضعف الوعي بالمهاد الفلسفي والأيدلوجي لتلك المناهج، في أسوأها².

وربما كان كتاب الناقد التونسي حسين الواد (البنية القصصية في رسالة الغفران) "هو أول الحصاد النقدي البنوي، وهو- أصلاً- بحث أُعد لنيل شهادة الكفاءة في البحث، ونوقش في جوان 1972، وتكتسي هذه الدراسة أهمية منهجية وتاريخية كبيرة؛ حيث تُعتبر الأولى من نوعها من حيث الطول والأهمية، زيادة على أنها ستكون نقطة انطلاق لعدة دراسات جامعية مطوّلة..."³، وقد تلت هذه المحاولة الرائدة جهود أخرى تشاطرها المنطلق المنهجي البنوي على اختلاف آلياته واتجاهاته.

ولقد تعددت في تونس العروض للنظرية البنوية في النقد في مرحلة جد مبكرة، فيطلع علينا رشيد الغزي ببحث مطوّل في (مسألة القصة من خلال النظريات الحديثة)، فتعرض إلى تحليل الشكلانيين الروس للقصة، وكذلك البنويين وخاصة أصحاب النزعة (الإنشائية) ومنهم تدوروف (Todorov)، ولقد سعى صاحب المقال إلى تبسيط النظريات من خلال أمثلة مستمدة من الأدب التونسي (حدّث أبو هريرة قال) أو (قصص الدوعاجي)، وقد أضاف الباحث إلى عمله قائمة هامة في المصطلحات البنوية بالعربية والفرنسية، مرتبة حسب الحروف الأبجدية الفرنسية⁴.

وتواصل إثراء المكتبة النقدية بترجمة نصوص كبار النقاد الغربيين، فهذه مجلة (الثقافة الجديدة المغربية) تخصّص عددا كاملا سنة 1978 لمشاغل النقاد المغاربة خاصة والعرب عامة، فينقل محمد البكري نصا لرولان بارت (R. Barthes) مأخوذا من كتاب (الكتابة في درجة الصفر)، وتجابه المترجم أيضا مشكلة المصطلحات، فيقيم ثبنا صغيرا لبعضها⁵.

وينقل محمد البكري في العدد نفسه من المجلة لجاك دريدا (J. Derrida) نصا بعنوان (البنية، الدليل، اللعبة في حديث العلوم الإنسانية)، ويقيم بعض الهوامش التي تخص ترجمة لبعض المفاهيم والمصطلحات.

وقد نوّعت مجلة الثقافة الجديدة في عددها هذا مختلف الترجمات عن مختلف الاتجاهات البنوية، فترجم مصطفى المسناوي نصا للوسيان غولدمان (L. Goldman) مأخوذ من كتاب (الماركسية والعلوم الإنسانية) الصادر عام 1970، وعنون المترجم هذا النص بـ (علم الاجتماع الأدب: نظامه الأساسي ومشاكله المنهجية)، مضيفا إليه بعض الهوامش لتقريب النص إلى الذهن العربي، كما أثبت المترجم معجما صغيرا لبعض المصطلحات⁶.

واهتمت مجلة (الأقلام) المغربية سنة 1979 في عددها العاشر بترجمة لنص الشكلايين الروس، وعنونت هذه الترجمة بـ (نظرية المنهج الشكلي).

وهكذا أخذت الترجمات العربية للبنوية تتدفق، والكتابات النظرية حولها تزداد، نذكر على سبيل التمثيل:

- أدولفو باسكيز، البنوية والتاريخ، ترجمة: المسناوي مصطفى، دار الحداثة، بيروت، 1981.
- برادة محمد وآخرون، ترجمة: البنوية التكوينية والنقد، مؤسسة البحوث العربية، بيروت، 1984.
- مهيبل عمر، البنوية في الفكر- عرض عام لأفكار البنويين - الجزائر، 1991.
- بغورة الزواوي، المنهج البنوي- بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات - الجزائر، 2000.
- بنيس محمد، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب- مقارنة بنيوية تكوينية - دار العودة، بيروت، 1979.

أ- البنوية الشكلائية:

1- معالم التيار البنوي الشكلائي عند عبد الملك مرتاض وحسين الواد: حدّد عبد الملك مرتاض المجال العام الذي يدور في فلكه النقد البنوي بقوله: " فالمدار في المنظور الحديث على الدراسة العمودية للمنهج، لا على الجمع، وعلى الملاحظة الدقيقة لا على الشرح التعليمي الأفقي للمنهج..."⁷.

وتقوم "الدراسة العمودية بتناول الإبداع الأدبي من عدة مناح ولا سيما من حيث بنيته الإفرادية

والتركيبية، ثم من حيث الزمان فيه وكيفية تعامل الكاتب معه، ثم من حيث الحيز ورسم الصور الفنية من خلال وضع هذه البنى، ثم أخيراً من حيث مستواه الصوتي"⁸.

وكما هو واضح فإن أثر علم اللغة الحديث بمستوياته الأربعة (المستوى الصوتي، المستوى الصرفي، المستوى النحوي، المستوى الدلالي) واضح على مقومات هذا التيار، بل إن الطابع العام الذي تميّز به هذا التيار يقوم على كونه نقداً لغوياً ينطلق من اللغة ولا يبرحها إلا ليعود إليها⁹.

وهكذا فإن الدراسة العمودية التي يقوم عليها هذا التيار في تناوله للإبداعات الأدبية قد فرضت عليه العناية بالرؤية النصية المجردة من الشوائب التي قد تعترض سبيل الناقد عند توجهه إلى الإبداع الأدبي قصد تحليله، وهذا باعتبار الإبداع نصاً لغوياً مستقلاً عما يُحيط به، وقد شرح حسين الواد بقوله: "ولعملي هذا حدود هي حدود المنهجية التي ألتزم بها، عندما رأيت أن أقتصر على الجانب الشكلي، والشكلي فقط كمرحلة أولى في تناول الإبداع الأدبي"¹⁰.

وقد برز أصحاب هذا التيار اقتصرهم على دراسة الجانب الهيكلي في الإبداع الأدبي بما نادى البنويون الشكلانيون عامة من أنّ الشكل هو الذي يسمح لأجزاء الإبداع الأدبي أن تدخل في علاقات غير اتفاقية، وأنّ المعنى أو المضمون رهين التركيب الواعي للأجزاء التي تكوّن النص¹¹.

فارتباط هذا التيار بالدراسات اللغوية جعل مهمة أصحابه لا تنفك عن تفتيت الإبداعات الأدبية وتشريحها من أجل فهمها، وإن كانت هذه العملية ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي مجرد مرحلة أولية تتبعها مرحلة أخرى تقوم بإعادة تجبير الإبداع الأدبي، ولكن بطريقة مغايرة، بحيث يكون النتاج الجديد أي العمل النقدي عبارة عن الثمار التي كان يخفيها الإبداع الأدبي في جوفه¹².

ولعل هذا هو ما قصده حسين الواد حين بيّن كيف أن الناقد يتناول الإبداع الأدبي بالتفكيك ثم يضم أجزائه بعضها إلى بعض هادفاً بذلك إلى إنتاج نص جديد¹³.

غير أن الطريقة التي سلكها النقاد في عمليتي التشريح والتركيب ليست بالبساطة التي يمكن لأي ناقد أن يقوم بها، وهذا ما تؤكد على -الخصوص- الحيرة التي تنتاب النقاد عندما يُقدمون على محاولتي التفكيك والتركيب النقديتين فهم لا يكفون عن مثل هذه التساؤلات:¹⁴

من أين يبدأ الناقد الإبداع الأدبي؟ ومن أين يأخذه للسيطرة على ما فيه من كوامن وخفايا؟ وما هي الظواهر التي يدرسها فيها؟ وكيف يستكشف هذه الظواهر ويهتدي إليها حتى يدرسها؟ وهل يسلك لذلك سبيلاً واحدة في كل الإبداعات الأدبية على اختلافها أو أنّ كل إبداع أدبي يفرض عليه منهجه؟

ونتيجة لهذه الصعوبة في تحديد المنهج لم يكن أمام هؤلاء النقاد عند مواجهتهم للإبداع الأدبي سوى محاولة البدء أو فرض (اللامنهج) في تعاملهم مع الإبداعات الأدبية¹⁵.

على أنّ الدخول اللامنهي إلى عالم الإبداع الأدبي لكي يظل في دائرة النقد البنوي ينبغي أن يتمسك صاحبه بقانون المحايدة الموضوعية ويتسلح بالثقافة النقدية الواسعة، علماً بأنّه من السذاجة الساذجة أن يزعم زاعم من الدارسين- مهما تعمّقت تجربته، واستطالت في الزمان خبرته - أنه قادر على وضع قواعد تضبط دراسة الإبداعات الأدبية، فمثل ذلك عسير جداً إن لم يكن مستحيلًا¹⁶، ومن ثم تبقى أعماله مجرد محاولات أولية أو مقاربات نقدية في مجال الدراسة الأدبية.

2- عبد الفتاح كيليطو والأدب والغرابية: أصدر الناقد عبد الفتاح كيليطو كتاب (الأدب والغرابية: دراسات بنيوية في الأدب العربي) عام 1982، وجعله في قسمين: شرح في القسم الأول بعض المفاهيم العامة من مثل: النص، الأدب، النوع، السرد، تاريخ الأدب، أما القسم الثاني فيهتم بتحليل بعض المؤلفات الكلاسيكية: أسرار البلاغة، مقامات الحريري، مقامات الزمخشري، ملحّة الإعراب، حكاية السندباد¹⁷.

ويرى كيليطو بأنّ القسم الثاني لا يطبّق العموميات الواردة في القسم الأول، فكل دراسة مستقلة بذاتها، وليست بحاجة إلى أن تستند إلى جاراتها، ومع ذلك يبدو لي أنّ مفهوم الغرابية يجمع هذا الشّتات¹⁸.

3- صدوق نور الدين وحدود النص الأدبي: وأما الناقد صدوق نور الدين فقد أصدر كتابه (حدود النص الأدبي: دراسة في التنظير والإبداع) عام 1984، قال فيه: "إن اختلاف المناهج أدى بنا إلى الوقوف على المنهج الاجتماعي، وهو منهج يربط النص بالمجتمع... في حين أن المنهج النفسي يهدف إلى الكشف عن الدافع النفسي للإبداع... أما المنهج البنوي فيعتبر النص بنية مغلقة، وداخل هذه البنية ثمة علاقات منتظمة...وقد حاولت في هذه الخطة الاستفادة من المناهج السالفة، رغبة في تشكيل نوع من التوفيق الهادف خدمة النص، ودون الرسو بسفينة النقد عند منهج بذاته"¹⁹.

وما يلاحظ على الكتاب هو اهتمامه بالأدب المغربي المعاصر وحده، إذ معظم الروايات والقصص التي عولجت كانت لأدباء مغاربة فحسب، كما يلاحظ اهتمامه بالسرد، فقد عالج كمّاً أكبر من الروايات مقابل (مقاطع) من بعض القصائد، وهذه (المقاطع) لا تعطي صورة كاملة عن القصيدة ولا عن صاحبها، وعلى الرغم من أنّ الباحث طبّق فيها (المنهج البنوي)، فإنه لم يخرج بوصف ل (بنية) القصيدة ولا ل (علاقات) وحداتها. ولم يتبع حتى المنهج (التوفيقي) الذي اقترحه²⁰.

ب- البنوية التكوينية: حظيت البنوية التكوينية وما تزال تحظى بحضور واسع في النقد العربي المعاصر، وتكاد تكون أكثر المناهج انتشاراً لدى عدد كبير من النقاد المتميّزين في شرق الوطن وغربه. وحين نتساءل عن

السبب في انتشار هذا الفرع من البنوية وإقبال النقاد عليه على ما بينهم من تفاوت في القدرات والحماسة، فس نجد من بين الاحتمالات البارزة أنّ البنوية التكوينية منهج يجمع الشيتيين، التوجه الشكلاني والتوجه الماركسي على نحو يرضي الرغبة في الإخلاص للنواحي الشكلية في دراسة الأدب مع عدم التخلي عن القيم والالتزامات الواقعية، اليسارية غالباً التي لعبت دوراً رئيساً في تشكيل التجربة السياسية والثقافية والاجتماعية في الوطن العربي²¹.

فقد اتضح على مدى العقد والنصف الأخيرين من القرن الماضي أنّ المغرب العربي أكثر اهتماماً من غيره بالبنوية التكوينية لأسباب يعللها الناقد المغربي حميد لحمداني بالإشارة إلى العلاقة القريبة مع الثقافة الفرنسية، مضيفاً أنّ تلك العلاقات هي ما يفسّر كيف أنّ هذا المنهج بالخصوص وجد تطبيقات متنوعة له في المغرب سواء في الشعر أم في النقد أم في الرواية²².

غير أنّ هذا التعليل لا يبدو كافياً إذا تذكرنا أنّ بلدانا عربية أخرى كلبنان وسوريا، وبعض بلاد المغرب العربي الأخرى عرفت علاقة مع فرنسا لا تقل وثوقاً إن لم تزد، كما هو الحال في الجزائر، ومع ذلك لم تشهد انتشاراً واضحاً للبنوية التكوينية، فلا بد أنّ ثمة أسباباً أخرى تفسّر ذلك.

لكن الواضح بشكل كاف هو أنّ المغرب من بين دول المغرب العربي إجمالاً قد شهد ازدهاراً واضحاً للنقد الأدبي، كما للفكر الفلسفي، قد يفوق ما نجده في غيره من تلك المنطقة من الوطن العربي، وكان الاهتمام بالبنوية التكوينية من الظواهر البارزة في ذلك الازدهار بغض النظر عن الأسباب الكامنة وراء ذلك. ومما يميّز ذلك الاهتمام أنه لم يترافق مع ذلك القدر الكبير من الخطابية والأيدولوجية الذي رافق كثيراً من النماذج المشرقية²³.

وفي ضوء هذا الانتشار الواسع سنعرض بعض التجارب النقدية البارزة لنقاد المغرب العربي على سبيل التمثيل:

1- طاهر لبيب وسوسيولوجية الغزل العربي: أصدر طاهر لبيب كتابه (سوسيولوجية الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً) باللغة الفرنسية عام 1972، ثم عرّبه حافظ الجمالي عام 1981 وفيه يرغب الباحث بأن يطرح من المشكلات أكثر مما يحلّ، ويأخذ على الأدب العربي أنه يهتم تقليدياً بمظاهر ثانوية للإبداع، وأنه قد تجمّد في جملة من الأحكام الموروثة، ولهذا ظل في منأى عن المحاولات المنهجية الجديدة التي ما فتئت تتطور وتؤكد ذاتها في مجال العلوم الإنسانية²⁴.

وقد وضع الباحث كتابه هذا في سياقه الاجتماعي. التاريخي المعاصر له، دارساً علاقة (الانعكاس) التي ترى أنّ الاجتماعي يؤثر في الأدبي، للبحث في شعر العذريين الذي قيل إنهم من ذوي العقّة بتأثير الإسلام عليهم،

ومعتمداً المنهج المستوحى من مجال (علم الاجتماع الأدبي)، ولاسيما دراسات لوسيان غولدمان، ومستنداً إلى مبدأ بسيط جداً خلاصته أنه يجب ألا نسأل الشاعر (عن شعره)، بل نسأل شعره (عنه)، وبالتالي فإن موضوعه هو تحليل الأثر الأدبي من الداخل. وقد أفضى به هذا التحليل إلى ملاحظة (رؤية خاصة للعالم) عند جماعة العذريين، وكأنها نواة وعي أو شعور جمعي لمجموعة اجتماعية مشخصة كانت قد عاشت في شروط مادية خاصة²⁵.

فاعتماد الباحث على المصادر الفرنسية وحدها، لكونه يتقن هذه اللغة وإغفاله المصادر العربية القديمة التي جمعت أخبار وأشعار العذريين، والمصادر العربية الحديثة التي عالجت (ظاهرة الشعر العذري) من مثل ما كتبه: العقّاد، وزكي مبارك، وشكري فيصل، وشوقي ضيف، وصادق جلال العظم وغيرهم عن هذه الظاهرة، جعل بحثه يعاني من نقص كبير، ولو أنه استفاد من المراجع العربية والحديثة لجاء بنتائج مختلفة، ولعدّل كثيراً من آرائه التي استوحاها من مراجعه الفرنسية فحسب، ومن غولدمان وحده²⁶.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا البحث يظل رائداً، لأنه تجرأ على معالجة موضوع معروف من زاوية نظر (البنوية التكوينية) التي كانت جديدة آنذاك (في مطلع السبعينات)، ولأنه وضع مقولات هذا المنهج النقدي موضع التطبيق في النقد العربي الجديد.

2- محمد بنيس وظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: يعرض محمد بنيس في مقدمة دراسته (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية) الصادر عام 1979 منهجين رئيسيين: الأول هو المنهج البنوي الذي عرّفه بإيجاز ووضوح أنه يهتم بعنصر اللغة، ويركّز على القوانين والأنساق الداخلية للعمل الأدبي، ويستخلص بنيس من عرضه لهذا المنهج بأنّ البنوية وفي أغلب اتجاهاتها تعامل النص كعالم ذري مغلق على نفسه وموجود بذاته، فتدخل تبعاً لهذا المفهوم في مغامرة الكشف عن لعبة الدلالات²⁷.

والنهج الثاني هو المنهج البنوي التوليدي، يحاول الناقد أن يجمع بين عناصر نقدية معينة تتجه كلها لتصب في المنهج البنوي الذي جعله يعتمد من جهة على مجموعة من النظريات اللسانية، كما دفعه من جهة أخرى إلى محاولة استيعاب أعمق روح المفكر البنوي التوليدي لوسيان غولدمان، تظل - على حد تعبيره - ماثلة أمام كل خطواته النظرية²⁸.

حدّد بنيس منهجه النقدي بقوله: "حاولت أن أرتبط بالقراءات التي تؤلّف بين داخل المتن وخارجه مستفيداً من البنوية في الكشف عن قوانين البنيات الدالة، ومن المادية التاريخية الجدلية في تفسيرها لطبيعة هذه البنيات ووظيفتها الجمالية والاجتماعية عملاً بنصيحة تروبتسكي في نقده للشكلايين، ومعتمداً على البنوية التكوينية"²⁹.

يبقى أن أهم ما يستوقفنا في تحليل بنيس هو قدرته على تحديد هدف وظف تحليله له، فقد استطاع بالإفادة من البنوية أن يعارض المناهج التقليدية وطرائق وصولها إلى النواة أو الرؤية، تلك الطرائق التي غالبا ما اتسمت بإطلاق الأحكام، وإسقاط الآراء وتقرير الاستنتاجات تقريرا اعتباطيا، وهو في معارضته مارس أو حاول أن يمارس بديلا علميا معقدا، أي تحليلا ممنهجا لعناصر النص ولمستوياته منطلقا من النص كمادة لغوية³⁰.

تعد دراسة بنيس رائدة في تطبيقات المنهج البنوي وتمظهره في النقد العربي، وهي في ريادةها تميزت بفكر يصوغ منهجا جديدا لنقدنا، وقد تجلى تميز هذا الفكر في ممارسة النقد تحليلا غنيا يخوض مجالات -في وقتها- مازالت بكرة في هذا النوع من الدراسة العربية.

3- نجيب العوفي ودرجة الوعي في الكتابة: في كتابه (درجة الوعي في الكتابة) الذي يمثل معارضة نقدية لكتاب رولان بارت (درجة الصفر في الكتابة)، يوضح العوفي منهجه بعد انتقاد البنوية الشكلانية لعجزها عن السيطرة على النص والواقع معا سيطرة فكرية تطال وتكتنه جوهر النص، وجوهر الواقع في أن باعتبار العلائق العضوية بين الطرفين، في هذا يطرح تصوره قائلا: " وأرى أن تفاعلا بين المنهج البنوي الشكلاني والمنهج الواقعي الجدلي في إطار نظرية نقدية ناظمة، وهي إمكانية واردة يزكها ويشجع عليها مشروع لوسيان غولدمان (L.Goldman)، أرى أن تفاعلا من هذا القبيل كفيلا بأن يُحقّق ذلك المبتغى الصعب للممارسة النقدية كفيلا بأن يُعزّز المنهج البنوي وموقع المنهج الجدلي في أن"³¹.

يعلن العوفي عن تبنيه للمنهج الجدلي، مما يجعل اقتراحه هنا بالتوصل إلى مزيج من المنهجين البنوي والجدلي نوعا من المساعدة على التخلص من المنهج البنوي الشكلاني الذي لا يرى فيه أكثر من تداريب ورياضات فكرية يراد منها اختبار القوى في أحسن الفروض واستعراض العضلات في أسوأ الفروض³².

لكن العوفي نفسه لا يبدي تحمسا للسير في ذلك الطريق الذي عززه وشجع عليه مشروع غولدمان في هذا اللون من الطرح نجد محاولة من الناقد للاحتفاظ بمسافة بينه وبين المنهج تتيح الفرصة له للتحرك بما يوحي بالابتكار المنهجي الذي يشارك من خلال الناقد العربي في صياغة ذلك المنهج أو غيره.

فالعوفي لا يتبنى البنوية التكوينية بشكل قاطع أو نهائي، وإنما هو يسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه من زكى ذلك المشروع وشجع عليه، أي غولدمان، غير أن ما يُحسب للعوفي هو تجنبه للإدعاء الريادي أو الإبداعي في التوصل إلى صيغة منهجية جديدة³³.

إن أهمية تجربة العوفي هي، من ناحية، في تأكيدها على أن انتشار البنوية التكوينية إنما تم على أرضية غذائها المنهج الماركسي، أو الجدلي، مما جعلها مهيأة للتصالح مع البنوية في شكلها التكويني، لاسيما وأن رائد

أحد أنماط ذلك التصالح، أي لوسيان غولدمان، كان يتحرك على أرضية مشابهة. وكانت الحركة النقدية المغربية في نهاية السبعينيات تتحرك كما يبدو على أرضية مشابهة جعلتها صالحة للمزيج الذي يشير إليه العوفي³⁴.

ومن ناحية أخرى، " تكتسب تجربة العوفي أهميتها من حيث هي تكشف عن صدق مع النفس يخالف الادعاءات الكبيرة التي تسيء كثيرا إلى بعض أنماط المثاقفة النقدية المشرقية. فهو لا يدعي الخروج بمنهج جديد ولا يدعي أنّ استعماله للمنهج الجدلي قد حقق الصرامة التي قد يتطلع إليها البعض: لم يكن استخدامي له، كما أرى، استخداما أرثوذكسيا صارما، وذلك لإيماني باستحالة وجود منهج بريء ومنغلق على نفسه"³⁵.

بل يرى أن قصارى ما يمكن أن يفعله الناقد هو مقارنة نسبية ومحدودة سواء فيما يتعلق بتطبيق المنهج أو فيما يتعلق باحتواء النص واكتناحه³⁶. وهو من هذا المنطلق متفق مع محمد برادة في نقده للتفاعل العربي مع النقد الغربي وذلك في دراسة هذا الأخير لمحمد مندور.

4- حميد لحمداني والرواية المغربية: ينطلق لحمداني في كتابه (الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي)، من قراءة نقدية للإرث النقدي السيسولوجي الجدلي، ليصل إلى طرح البدائل النقدية للبنوية التكوينية. وأهم ملاحظة سجلها بشأن الانعكاس والنقد الجدلي هي مساءلتهم النصوص الإبداعية بوصفها مواقف سياسية لكتابها، يبحثون في ثناياها عن المعادل الاجتماعي بالدرجة الأولى³⁷.

ولذلك ابتعد هذا النوع من الطرح النقدي عن مجال الدراسة الأدبية، وأخذ صبغة سياسية وإيديولوجية صرفة، فالدلالة الاجتماعية هي التي كانت تثير أولئك الدارسين، ولذلك اتخذ المنهج الجدلي التاريخي في النقد صورة إيديولوجية صريحة، وكان من شأن هذا الوضع أن يبعد الأحكام الصادرة عن الطابع النقدي الأدبي³⁸.

وهذا الوعي النظري هو الذي دفع الناقد لحمداني لاكتشاف حقائق هامة وجديدة حول العلاقة العميقة بين الإبداع الفني والواقع الاجتماعي، وجعله يقترب من أطروحات النقد السيسولوجي الجديد ابتداء من المفاهيم التي طرحها جورج لوكاتش (G. Lukacs) في كتابه (بناء الرواية) الذي يعد - أي لوكاتش - مؤسس سيسولوجيا الرواية، مرورا بأطروحات روني جيرار التي ضمنها كتاب (الكذب الرومنطقي والحقيقة الروائية)، وصولا إلى المفكر والناقد لوسيان غولدمان الذي أسهم بفعالية في إثراء مفاهيم وإجراءات النقد السيسولوجي.

وقد تبني لحمداني تصورات غولدمان الأساسية حول البنوية التكوينية التي وضعها في كتابه من أجل سيسولوجيا الرواية، ويمكن عدّها بمثابة مفاهيم نظرية أساسية.

واستنادا إلى المحددات السابقة يتبنى لحمداني المنهج البنوي التكويني أساسا منهجيا وإجرائيا في مقارنة النصوص الروائية المغربية. ويرى بأن " اختياره لهذا المنهج مبرر بكونه يعبر عن مستوى علمي متقدم يقترب من فهم طبيعة العلاقة الموجودة بين الإبداع والواقع الاجتماعي الإنساني " ³⁹، من حيث إنه يتيح إمكانية الجمع بين التحليل الشكلي والدراسة الاجتماعية.

لذلك نجده يقترح الاستفادة من المفاهيم الأساسية والأولية التي يعتمدها البنيويون في دراسة النصوص الروائية، وتتضمن بعض تطبيقاتها في إطار الدراسة البنوية التكوينية.

وقد استند الناقد في تقسيم دراسته إلى المراحل التي اقترحها لوسيان غولدمان وهي: مرحلة الفهم، ومرحلة التفسير؛ فالمرحلة الأولى تقوم على التحليل بغية الكشف عن البنيات المضمونية الداخلية العميقة دون الاستناد بأي شكل من الأشكال إلى المعطيات الخارجية التي يمكن أن توجه البحث وجهة خاصة؛ أما المرحلة الثانية فتهدف بالأساس إلى هيكلة النص ضمن مساره التكويني النشوئي الذي تُخَلَق فيه وتتم عبر البنية المجتمعية التي تناظر بنية النص الداخلية، وتكشف عن تمظهر إيديولوجي خاص يتمثل النص
أصداءه ⁴⁰.

ويوضّح لحمداني هذه المنهجية بقوله: "إنّ الدراسة تسير دائما في إطار بُعدين أساسيين: بُعد التحليل، ويستهدف الكشف عن البنى الفنية وما تُعبّر عنه أيضا من بُنى مضمونية دون الرجوع في الغالب إلى أية معطيات خارجة عن النص بُعد التفسير، وهو يستهدف وَضْع النص ضمن أبنية أوسع هي التي تُفسّر طبيعة الرؤية الاجتماعية التي يتضمنها العمل الإبداعي، ويتم التعرف على هذه البنية الفكرية الأوسع بما يوجد بينها وبين النص من تناظر" ⁴¹.

وضمن مسار المقاربة التي تسير باتجاه إقامة التناظر بين البنية المجتمعية والبنية النصية، فإن لحمداني يلتزم بالمحاذير المنهجية التي قدمها غولدمان بشأن تحاشي المقابلة المرآوية بين النص السردى والواقع. وبخاصة حين يشير إلى أنّ الأعمال الروائية مهما تشابهت أحداثها مع الواقع، فإنّ عالمها يبقى عالما متفردا يتمتع باستقلاليته من جانب كونها أعمالا تخيلية تركيبية بالدرجة الأولى؛ فبالرغم من أنّ بنيات العالم الروائي مماثلة مع بنيات ذهنية لبعض المجموعات الاجتماعية، فإنّ الكاتب يملك كامل الحرية في بناء عالمه التخيلي ⁴².

5- محمد برادة و(محمد مندور وتنظير النقد العربي): قَدْر أكبر من الصراحة في مواجهة الإشكاليات المنهجية التي فرضها التعامل مع الفكر النقدي الغربي نجده لدى محمد برادة في دراسته لتجربة محمد مندور النقدية. تلك الصراحة استدعتها على ما يبدو، وإن جزئيا، وقفة برادة الحائرة أمام المناهج الغربية.

فهو في بدء الدراسة يشير بشيء من الإبهام إلى (مناهجه) أو (منهجه): " لقد أثرنا فيما يخصنا، استحياء

المناهج الصادرة عن البنوية التكوينية كما بلورها كل من جورج لوكاتش و لوسيان غولدمان (L. Goldman)، وبير بورديو (P. Bourdieu)⁴³.

ما يريد برادة أن يقوله باختصار فيما يبدو هو أنّ المذاهب الأدبية الأوروبية تُستخدَم استخداماً ميسراً لا يتعمّقها ولا يراعي اختلاف النصوص الأدبية التي تُطبّق تلك المذاهب في دراستها، وأنّه يتفادى تلك المشكلة من خلال ما يعبر عنه بالاستحياء، أي استحياء المناهج بدلاً من تبنيها كما هي.

ذلك الهدف مهم وجدير بالتأمل لكنه يستثير سؤالين: الأول، عن ماهية الاستحياء، أي كيف يكون، وما هي حدوده أو مقدار اختلافه عن التبيّن المرفوض هنا، كما يبدو؟ والثاني عمّا إذا كان الاستحياء ممكناً أصلاً؟ لا نعثر في كتاب برادة عن جواب شاف لهذين السؤالين، ما نعثر عليه هو وعي برادة بالإشكالية المطروحة، إشكالية التعامل مع المناهج النقدية الغربية كما تتمثل في البنوية التكوينية، ودراسته لمندور دراسة تأخذ بالاعتبار بعض سماتها الأساسية وذلك حسب تعبير برادة بتحديد الشروط الاجتماعية-الثقافية التي تولدت عنها الإنتاجات الأدبية والنقدية خلال هذه الفترة (1936-1952 للحقل الأدبي، و1952-1965 للحقل الأيديولوجي) متأثرة ومستجيبة لعلائق معينة بين القراء، وبين المنتجين الأدبيين⁴⁴.

ولكن برادة "يؤكد في نهاية كتابه مسألتين مهمتين بخصوص ما استوحاه من مناهج تكوينية: الأولى أنه لا يمكن الزعم بأن منهجنا علمي أو موضوعي بإطلاق: بل هو منهج يصدر عن رؤية أيديولوجية ولا يتحایل في إخفائها، والثانية أنّ منهجنا في هذا البحث لم يكن مكتملاً منذ البداية، بل إنّ أهم عناصره تجمّعت وتبلورت أثناء البحث"⁴⁵.

هذه المحدّدات أو التأمّلات لطبيعة الممارسة المنهجية وحدودها تبعث على الإعجاب لكنها تترك أسئلة كثيرة أخرى: "هل استطاع الناقد أن يستوحي فعلاً تركيبة منهجية مميّزة تخدم غرضه؟ ثم ما هي الأسس الفلسفية التي بنى عليها الاختيار، الأسس التي نجدها لدى غولدمان أو بورديو أو غيرهما ممن طوروا رؤيتهم وممارستهم المنهجية في دراسة الأدب والثقافة عموماً؟ عند برادة، كما عند غير ناقد عربي، لا نكاد نظفر بأكثر من الوعي بالإشكالية والسعي الطموح إلى تجاوزها، وهذا لا يغضّ بالضرورة من قيمة الدراسات نفسها"⁴⁶.

6- محمد ساري والبحث عن النقد الأدبي الجديد: أصدر الناقد محمد ساري كتابه (البحث عن النقد الأدبي الجديد) سنة 1984 خصّصه (للقيد البنوي التكويني) وتطبيقاته، فجعل الباب الأول لنظرية النقد عند لوكاتش، و غولدمان؛ عرض فيه (نظرية الرواية عند لوكاتش ممهّداً لها بلمحة سريعة عن حياة لوكاتش الذي عاش في المجر في مطلع القرن العشرين تحت ظل إمبراطورية إقطاعية، ثم هاجر إلى ألمانيا حيث ظل

فيها حتى قيام الحرب العالمية الأولى. واختلط فيها بالمتقنين الذي كان التيار الرومانسي المناهض للرأسمالية يجمعهم، فاتجهوا إلى تمجيد العصور القديمة، ليتمكنوا من تحقيق هويتهم، وهجر بعضهم المدن إلى الأرياف هرباً من الاغتراب الذي يعانیه في المدينة.

أما غولدمان ومنهجه البنوي التكويني فقد عرضه الباحث من خلال المؤثرات اللوكاشية عليه، حيث انطلق غولدمان من هذه المبادئ لإحداث تغيير جذري في منهجية سيديولوجيا الأدب، معترفاً بدور لوكاتش المؤسس الأول لهذه المنهجية.

ولكن الدراسات السابقة في هذا الميدان إذا كانت قد اكتفت بالبحث عن تطابق العالم الواقعي والتجريبي في العالم الأدبي، فإنها قد اكتفت بالبحث عن الوثائق التاريخية أكثر مما تبحث عن الأدب ووحدته⁴⁷.

وفي القسم التطبيقي من الكتاب حاول الباحث الإحاطة بهذا المنهج في النقد الجزائري الجديد (الإشكالية في رواية العشق والموت في الزمن الحراشي)، وفي القصة القصيرة الجزائرية، حيث ناقش كتاب: القصة القصيرة في عهد الاستقلال للناقد الجزائري محمد مصايف، فأخذ عليه فصله بين (الشكل) و(المضمون)، وحديثه عن القصة وكأنما هي وثيقة اجتماعية وسياسية، وإهماله العناصر الفنية للقصة، ثم ختم الباحث كتابه بفصل عن (النماذج القصصية) عرض فيه ل: الليل ينتحر، والجراد المر، والتفكيك، والتلميذ والدرس، والشمس تشرق على الجميع، والزلزال⁴⁸.

7- عبد الله راجع والقصيدة المغربية المعاصرة: أمّا رسالة المرحوم عبد الله راجع (القصيدة المغربية المعاصرة: بنية الشهادة والاستشهاد) فإنّها تمثّل جهداً إضافياً ينطلق من مبدأ الإيمان بالبنوية التكوينية، ويعي الصعوبات التي تعترض تطبيقها على الشعر عامة، والشعر المغربي خاصة، ولذلك استعان الباحث تلافياً للخلل الذي يمكن أن يعرّض المنهج بعلم النفس كما طبقه شارل مورون (Ch. Mauron)، وكذا بالبحوث الأسلوبية، مكثفياً، من البنوية التكوينية بنظيرتها العامة وخطوطها الكبيرة مثل مرحلتي: الفهم والتفسير والقراءة الداخلية والخارجية للنص الشعري⁴⁹.

واستطاع الباحث بحسه الفني المرهف أن يدرس بوعي علمي واضح قضايا أساسية في الشعر العربي في المغرب انطلاقاً من نصوص الشعراء الذين برزوا في السبعينيات، مثل قضية المجاز وعلاقتها ببنية اللغة الشعرية، مسألة الإيقاع بما هي بنية موسيقية وعروضية ودلالية وعلاقتها بالقافية، هندسة النص الشعري أو البنية المعمارية وأشكال تجسدها، الصورة الشعرية وما تقوم عليه من تخيل ورموز واستعانة بالأساطير وغيرها⁵⁰.

إنّ الباحث لم يزاوج في رسالته بين معطيات البنوية التكوينية وبين الأسلوبية وبعض حقائق علم النفس

فحسب، ولكنه كان يربط قضايا القصيدة المغربية المعاصرة بتراثها العربي الإسلامي ويستعرض، في عجالة، منجزات العمل الشعري العربي وآراء النقاد القدامى فيه بحيث مكنته طريقة العرض هذه من تحديد النقطة التي وقفت عندها القصيدة القديمة وقصيدة التفعيلة وبيانه، في مقابل ذلك، الإضافة الجديدة- مهما كانت ضئيلة - التي أتت بها القصيدة المغربية في السبعينيات، مقارنة أحيانا بتحقيقات قصيدة الستينيات، وقد شملت هذه المقارنة السريعة مستويات مختلفة أهمها اللغة الشعرية، البنية الإيقاعية، التشكيل المعماري أو البناء الدرامي والصورة الفنية، وهي المستويات الأربعة التي كرّس الباحث لدراستها في الجزء الأول من كتابه⁵¹.

هوامش البحث:

- ¹ - ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005، ص:386.
- ² - ينظر: المرجع نفسه، ص:387.
- ³ - يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص:118.
- ⁴ - ينظر: حفناوي بعلي، فضاءات المقارنة الجديدة..الحداثة..العولمة..جماليات التلقي، دار الغرب للنشر والتوزيع، (د ط)، 2004، ص:281.
- ⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص:283.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص:283.
- ⁷ - شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقاد الجمالي والبنوي في الوطن العربي- نظرية الخلق اللغوي- ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)، ج3، ص:101.
- ⁸ - عبد المالك مرتاض، النص الأدبي: من أين؟ وإلى أين؟. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، (د ط)، 1983، ص:4.
- ⁹ - ينظر: المرجع السابق، ج3، ص:101.
- ¹⁰ - شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقاد الجمالي والبنوي في الوطن العربي- نظرية الخلق اللغوي-، ج3، ص:102.
- ¹¹ - ينظر: الواد حسين، البنية القصصية في رسالة الغفران، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، (د ط)، 1975، ص:13.
- ¹² - ينظر: شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقاد الجمالي والبنوي في الوطن العربي- نظرية الخلق اللغوي- ج3، ص:103.
- ¹³ - المرجع السابق، ص:13.
- ¹⁴ - ينظر: عبد المالك مرتاض، النص الأدبي: من أين؟ إلى أين؟، ص:40.
- ¹⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص:54.
- ¹⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص:49.
- ¹⁷ - عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابية: دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط4، 2007، ص:11.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص:11.

- ¹⁹ - محمد عزّام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2003، ص:63.
- ²⁰ - ينظر: المرجع نفسه، ص:64.
- ²¹ - ينظر: سعد البازعي، استقبال الآخر- الغرب في النقد العربي الحديث- المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2004، ص:204.
- ²² - ينظر: حميد لحمداني، النقد الروائي والأيديولوجيا- من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي- المركز الثقافي العربي، المغرب، (د ط)، 1990، ص: 114.
- ²³ - ينظر: المرجع السابق، ص:206.
- ²⁴ - ينظر: محمد عزّام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، ص:266.
- ²⁵ - المرجع نفسه، ص:267.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص:274.
- ²⁷ - حفناوي بعلي، فضاءات المقارنة الجديدة الحداثة..العولمة..جماليات التلقي، ص:291.
- ²⁸ - ينظر: محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب- مقارنة بنيوية تكوينية- دار العودة، بيروت، (د ط)، ص:27.
- ²⁹ - المرجع نفسه، ص:11.
- ³⁰ - ينظر: حفناوي بعلي، فضاءات المقارنة الجديدة الحداثة..العولمة..جماليات التلقي، ص:292.
- ³¹ - سعد البازعي، استقبال الآخر، ص:207.
- ³² - ينظر: المرجع نفسه، ص:207.
- ³³ - ينظر: المرجع نفسه، ص:208.
- ³⁴ - ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص:400.
- ³⁵ - المرجع نفسه، ص: 400.
- ³⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 400.
- ³⁷ - ينظر: عمر عيلان، النقد العربي الجديد- مقارنة في نقد النقد- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص:206.
- ³⁸ - ينظر: حميد لحمداني، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص:10.
- ³⁹ - المرجع نفسه، ص:208.
- ⁴⁰ - المرجع نفسه، ص: 209.
- ⁴¹ - المرجع نفسه، ص: 16.
- ⁴² - عمر عيلان، النقد العربي الجديد- مقارنة في نقد النقد-، ص: 209، 210.
- ⁴³ - سعد البازعي، استقبال الآخر، ص: 210.
- ⁴⁴ - ينظر: سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 2008، ص: 313.
- ⁴⁵ - المرجع نفسه، ص:314.
- ⁴⁶ - المرجع نفسه، ص:314.
- ⁴⁷ - ينظر: محمد عزّام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، ص:264.

48 - ينظر: المرجع نفسه، ص:265.

49 - ينظر: إدريس نقوري، البنية التكوينية- النظرية والتطبيق في النقد الأدبي المغربي أو (قارورة نصف ملى نصف فارغة)-
مجلة فكر ونقد، السنة الأولى، العدد6، الرباط، المغرب، فبراير 1998، ص:73.

50 - ينظر: المرجع نفسه، ص:73.

51 - ينظر: المرجع نفسه، ص:74.